

الإمارة المزيديّة في الرحلة وعلاقتها بالفاطميّين

الدكتور عبد الجبار ناجي

لقد امتازت فترة إمارة دبّيس الأسدي المزيدي بميزة تاريخية مهمة ألا وهي فترة انتهاء التسلط البويهّي في العراق، وبداية فترة التسلط السلجوقي.

وفي هذا الدور بالذات اتخذت الثورة المزيديّة طابعاً آخرأ متمسماً بالقوة والفعالية. وقبل التوغّل في سرد التفصيلات عن هذا الدور نرى من الأفضل تقديم بعض الأمور العامة التي تساعدنا على تفهم العلاقة بين المزيدين والسلطين السلاجقة وهذه الأمور هي: أ- أن المزيدين أصبحوا القوة العربيّة الوحيدة والمهمة في المنطقة، لاسيّما بعد ضعف وانتهاء نفوذ العقيليّين في منطقة الفرات الأوسط والجزيرة، وانحراف اطماعهم نحو الجهات الغربيّة أي نحو بلاد الشام.

ب- لم يحاول أو بالأحرى لم يستطيع السلاجقة وخاصة في الفترات الأولى، القضاء على كيانات القبائل العربيّة، وكما قالت البروفسور لامبتون أن السلاجقة لم يرغبوا إلى حد كبير في السيطرة المباشرة^(١) على تلك القبائل لهذا فقد اتخذوا سياسة المهادنة والارضاء كما أن إبقاء بني مزيد في هذه المنطقة يسهل كثيراً مهمة السلاجقة في حفظ أمن تلك المنطقة ضد هجمات القبائل الأخرى.

ج- كان الخليفة والسلاجقة من السنة بينما كان المزيديون من الشيعة الإمامية، وقد لعب هذا العامل دوراً كبيراً في مجرى الأحداث السياسيّة في زمن دبّيس وخير مثل على ذلك موقفه من ثورة البساسيري الشيعة، غير أن هذا العامل كان أبلغ أثراً في زمن كل من صدقة بن منصور وابنه دبّيس بن صدقة، حيث تشكّلت ثلاث كتل سياسيّة متنافسة في فرض وتوسيع سيطرتها وهي كتلة الخليفة وكتلة السلطان السلجوقي ثم كتلة بني مزيد.

إن أول حركة سياسيّة خطيرة واجهها طغرل بك قبل استقراره ببغداد هي ثورة البساسيري، أن هذا الموضوع بحد ذاته خارج عن نطاق هذه الدراسة^(٢).

(١)- لقد جاءت البروفسورة لامبتون باراء جديدة وجديرة بالاهتمام في دراستها.

Lambton: Contributions to the study of Seljuq institutions. Unpublished thesis for the Ph.D. (1939) pp. 39-40 See also Bosworth: The political dynastic history of the Iranian world Chambridge

History of Iran. Vol. 5 p. 24.

(٢)- للباحث دراسة عن ثورة البساسيري.

وإننا سوف نركز على علاقة دبيس بهذه الثورة.

بدأت علاقة البساسيري ببنى مزيد منذ سنة ٤٢٥هـ/١٠٣٣م عندما سار لمساعدة ثابت بن مزيد ضد أخيه دبيس، ومن المحتمل أن علاقته تحسنت بدبيس، إذ يذكر ابن الأثير أن البساسيري سار لنجدة دبيس عندما هاجم بنو خفاجة الجامعين، وقد استطاع البساسيري أن ينتصر عليهم ويطردهم من منطقة الكوفة التي أصبحت تحت سيطرة دبيس^(٣) ثم أن هناك علاقة المصاهرة بين دبيس والبساسيري^(٤) وقد فضل دبيس أن يتحاشى التسرع في الاصطدام مع السلاجقة. وعندما دخل طغرل بك بغداد هرب البساسيري منها والتجأ إلى دبيس حيث أقام عنده، ولكن عندما أمره طغرل بك بإبعاد البساسيري من بلده أمثل للأمر وأبعده^(٥).

ومن الجدير بالإشارة هنا وقبل التطرق - إلى علاقة دبيس بالخليفة الفاطمي أن كون المزيديين من الشيعة لم يكن السبب الوحيد في تأييدهم للفاطميين الشيعة في مصر، بل أنه بالإضافة إلى ذلك فإن من طبيعة القبائل أن تظهر تأييداً كبيراً للحكام الذين يبعدون عن مناطق نفوذهم أكثر من أولئك القريبين منهم.

كما أن دبيسا قد أيد البساسيري في علاقة الأخير بالخليفة المصري. وللمؤيد في الدين (داعى الدعاة الفاطمي والذي كان له دور بالغ الأهمية في ثورة البساسيري) معلومات وافية بهذا الصدد فقد جاء في العهد الذي كتبه الخليفة المصري لدبيس تأكيد لذلك الولاء قال فيه «رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يفيض عليك من خاص ملابسه ماتفيض به السعادة عليك ملابسها»^(٦) وقد منحه لقب سلطان ملوك العرب، سيف الخلافة صفى أمير المؤمنين^(٧). كما وأن الخليفة الفاطمي قد قلد الزعامة على عرب العراق^(٨). ويبدو أن الخليفة الفاطمي هدف من وراء إعطاء هذه الألقاب والامتيازات لدبيس أن يربطه بالقوة الفاطمية بصورة أكثر، لاسيما وأن للقب أهمية كبيرة في نفوس القبائل.

وقد وضع المؤيد في الدين في ديوانه ذلك فقال أن دبيسا لما علم بالخلع والألقاب التي منحها الخليفة المصري للبساسيري حسده وأراد الحصول على مثلها فأخذ يفرض على المؤيد شروط الاتفاق وقد قبلها المؤيد كلها^(٩) وبالإضافة إلى ذلك فإن منح الخليفة الفاطمي لتلك الألقاب والامتيازات إنما تعكس بوضوح نفوذ دبيس وأهمية تأييده للدعوة الفاطمية، فللقب الزعيم على عرب العراق يدل على أن دبيسا كان واسع النفوذ وهو الممثل الأعلى للقبائل العربية الأخرى التي سكنت العراق.

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٤

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٨. ابن الوردي ج ١ ص ٣٥٤. مخطوط العسجد المسبوك ج ١ ورقة ٢٧ (ب).

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٢٩. ابن العديم: زبدة ج ١ ص ٢٧٠. أبو الفداء ج ١ ص ٤٦٦.

(٦) سيرة المؤيد في الدين داعى الدعاة ص ١٢٧.

(٧) م. ن. (٨) - م. ن.

(٩) ديوان المؤيد في الدين داعى الدعاة ص ٤٣

والسؤال الذي يفرض نفسه هو هل أن ديبسا كان جاداً ومخلصاً في تأييده للخليفة الفاطمي؟ أم أنه كان يهدف إلى استغلال الدعوة في سبيل الحصول على مكاسب مادية وسياسية أولاً وثانياً إلى معرفة رد الفعل السلجوقي من الناحية العسكرية، فإن كان قوياً فإن ذلك يفرض عليه التريث وأما إن كان ضعيفاً فإن بإمكانه أن يسود ويوسع نفوذه. وينفرد المؤيد في الدين في إعطاء بعض المعلومات المهمة عن موقف ديبس ومكانته بالنسبة للدعوة. ومما قاله: أن ديبسا اخذ يفرض على المؤيد الشروط والتعهدات مقابل تأييده الفاطميين. وقد قبل المؤيد جميع تلك الشروط، ومع هذا فإن جماعة ديبس رفضوا البيعة للخليفة المصري إلا بعد قراءة نص اليمين^(١٠) وقد أورد نفس المؤلف كلاماً آخرأ عن ديبس يستشف منه أن ديبسا كان متشككاً في الدعوة وخائفاً من الاصطدام بالسلطة المركزية، فقد قال للمؤيد في إحدى المناسبات «إن هذا الأمر الذي نحن بصددده أمر عظيم، تقصر قوانا وقوى أضعافنا عن النهوض له^(١١)»، غير إننا لانعرف إلى أي مدى يمكن تصديق المعلومات التي أوردتها المؤيد، مع أنه معاصر للحوادث ومندوب من قبل الفاطميين، والشئ المهم الآخر أن المصادر الأخرى لاتعطي مثل هذه الملاحظات، فأما ابن الجوزي فإنه لا يذكر شيئاً عن علاقة ديبس بالبساسيري، في حين يذكر صاحب مخطوطة تاريخ دولة عباسية «أن البساسيري أنضم إلى نور الدولة ابي الأعز ديبس بن علي ابن مزيد الأسدي وقريش بن بدران صاحب الموصل وديار ربيعة وكاتب المستنصر يحسن له مافي نفسه من خلع دولة بني العباس وازالة ملكهم^(١٢)». ومع مافي هذه الرواية من تناقضات بالنسبة لقريش بن بدران حيث تقول المصادر الأخرى بأنه لم ينضم إلى الآخرين إلا بعد محاربته من قبل البساسيري واجباره على الخضوع^(١٣). فإن المؤلف يذكر ايضاً الخلع والأموال التي جاءت من الخليفة الفاطمي إلى البساسيري وديبس. وابن الأثير لا يذكر موضوع الخلع والهدايا إلا بعد استيلاء البساسيري وكتلته على الموصل^(١٤) والذي يبدو أنه ليس هنالك شك في تأييد ديبس للدعوة الفاطمية، إلا أنه في نفس الوقت لم يحاول أن يرمى بكليته في سبيل ذلك فيفقد بهذا استقلاله كما وأنه أراد الحصول على أكبر قسط ممكن من الامتيازات من وراء تأييده. أما عن الدور السياسي الذي لعبه ديبس بالاشتراك مع البساسيري في حملاته العسكرية فإن ابن الأثير يشير إلى مشاركته للبساسيري في حربهم ضد قريش بن بدران صاحب الموصل. والمصادر المتوفرة لدينا تتفق ايضاً على مشاركته للبساسيري في الاستيلاء على الموصل.^(١٥)

(١٠) - ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ص ٤٣

(١١) - السيرة المؤيدية ص ١٢٦

(١٢) - مخطوطة تاريخ دولة عباسية لمؤلف مجهود (اسطنبول) ورقة ٩٦ (ب) ٩٧ (أ).

(١٣) - ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٤. مخطوط المسجد المسبوك ج ١ ورقة ٢٦ (ب).

(١٤) - ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٤

(١٥) - السيرة المؤيدية ص ١٣٤- ١٣٥ مخطوط تاريخ دولة عباسية. ورقة ٩٦ (ب) ٩٧ (أ) ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٤.

أما في حادثة الهجوم على بغداد في سنة ٤٥٠ هـ فإننا نجد بعض التناقض، فبالنسبة لابن الجوزي وابن الأثير فأنهما يريان أنه في الوقت الذي كان فيه السلطان طغرل بك خارجاً لمحاربة أخيه ابراهيم بن يئال اشيع في بغداد على أن البساسيري سائر نحو المدينة لمهاجمتها. لذلك استنجد الخليفة بدبيس من أجل المساعدة، فإن ابن الجوزي يقول بأن دببسا نصح الخليفة بترك بغداد والخروج منها^(١٦) أما ابن الأثير فيذكر أن دببسا سار -على أثر استنجد الخليفة به- في مائة فارس وعسكر في النجمي، ومن هناك دخل في مفاوضات مع الخليفة ناصحاً له بالخروج من بغداد والاجتماع معه على محاربة البساسيري^(١٧) إن هذه الاشارات تتصادم وما قدم قبلا من أن دببسا كان متفاهماً مع البساسيري وقد شاركه في كثير من حملاته، فهل أن دببسا تراجع عن موقفه السابق المؤيد للبساسيري ووقف إلى جانب السلطان والخليفة؟ لاسيما وأن كلا من ابن الجوزي وابن الأثير يوردان نصاً يفيد بأن دببسا قد اصلح حاله في سنة ١٠٥٧/٤٤٩ مع السلطان وعاد إلى بلاده^(١٨) أم أن دببسا قد هدف من وراء اقتراحه (خروج الخليفة من بغداد) أن يسهل السبيل للبساسيري عند احتلاله المدينة. كما أن هناك أدلة أخرى تؤيد أن دببسا بقي مؤيداً للبساسيري بعد سيطرته على بغداد ولو إلى فترة قصيرة، فقد قام بالاشتراك معه بعدة حملات عسكرية تصد من ورائها إلى توسيع نفوذه والحصول على اعترافات اصحاب المناطق المختلفة بسلطته. مثلاً اشتراكه في حملته ضد البطيحة والاهواز.

إن ضعف علاقة دببسا بالبساسيري لم تكن وليدة عامل مباشر واحد بل وليدة عوامل عدة أهمها أولاً تضارب مصالح كل منهما، فالبساسيري رجل عسكري أراد جمع الأمور كلها بيده ومحاولة تجريد دببسا من بعض امتيازاته. ومن الجدير ذكره بهذا الصدد أنه عندما سار البساسيري ودببسا في حملة ضد الأهواز، استنجد صاحب الأهواز بدببسا من أجل التوسط عند البساسيري على أن لا يهاجم الأهواز مقابل مبلغ من المال ولكن البساسيري رفض طلب دببسا^(١٩).

ثانياً لقد أثبت طغرل بك كفاءة كبيرة في القضاء على تمرد أخيه ابراهيم، فمن المحتمل أن دببسا شعرباً أن النتيجة قد تكون غير مرضية بالنسبة له حالما يحصل طغرل بك على النصر. وقد ذكر ابن الجوزي في هذا المجال رواية مفادها أن أنو شروان أحد قواد السلطان السلجوقي راسل دببسا وطلب منه تسليم البساسيري أو الابتعاد عنه، وقد أوضح لدببسا مكانته عند السلطان، فكان جواب دببسا بأنه خادم للسلطان وأنه يكره البساسيري ولكن من الأفضل أن يعمل على اصلاح امره والاستفادة منه.^(٢٠)

(١٦)- ابن الجوزي ج ٨ ص ١٩١

(١٧)- ابن الأثير ج ٩ ص ٢٣٩ وما بعدها

(١٨)- ابن الجوزي ج ٨ ص ١٨١، ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤٠

(١٩)- ابن الأثير ج ٩ ص ٢٤١

(٢٠)- ابن الجوزي ج ٨ ص ٢٠٩ وما بعدها.

كان دبّيس رجلاً كريماً مضيافاً، ولا أدل على ذلك من ذهاب بعض شخصيات أما التجاء إليه أو هرباً من السلطان أو ضيافة له... منهم الشرابي صاحب البطيخة^(٢٥) والبسايري وسعدي بن أبي الشوك^(٢٦) والمقلد أخو قريش بن بدران^(٢٧) والوزير ابن جهير^(٢٨) وكانت الظروف السياسية تجبر هؤلاء على اللجوء إليه فمنهم المغضوب عليه من قبل السلطان أو الخليفة ومنهم مغضوب عليه من قبل أفراد عشيرته كالمقلد. والظاهر أن الرجل كان يتمسك بتقاليد البداوة التي تؤكد على المروءة والنجدة ولهذا كان أولئك مطمئنون إلى أنه لن يغدر بهم حتى لو أدى ذلك به إلى الحرب كما جاءه أشخاص آخرون قصد الضيافة ومنهم عميد الملك^(٢٩) وأم صاحب قلعة تكريت^(٣٠). توفي دبّيس سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م وقيل ٤٧٣/ ١٠٨٠م^(٣١) وكانت أمارته أيضاً وستين سنة، وقيل أنها سبع وخمسون سنة، وقيل سبع وستون سنة^(٣٢).

المسوك جعلها المؤلف ٦٠ سنة (انظر ج ١ ورقة ٣٥ ب). والاصح ٦٧ سنة.

من أشهر أولاد دبيس بهاء الدولة منصور^(٣٣). وقد ولي الإمارة سنة ٤٧٤هـ على أثر وفاة والده، ثم ذهب إلى السلطان، كما هي العادة، في بغداد كي يحصل على الاعتراف الرسمي بولايته، وقد خلع عليه السلطان والخليفة^(٣٤). ولقد استمر منصور يدفع أربعين ألف دينار سنوياً إلى السلطنة^(٣٥) كما كان مقرراً على أبيه.

خلت فترة إمارة منصور بن دبيس من أي حدث سياسي مهم تعرضت له الإمارة المزيديّة، والحقيقة أن فترته كانت قصيرة بلغت حوالي خمس سنين، كما أنه من المحتمل أن هذا الأمير، بعكس الأمراء السابقين، قد تجنب التدخل في الأمور السياسية. لقد كان منصور كثير الصلات والصدقة^(٣٦).



ضريح الأمير مزيد الأسدي الحلي في جبل مصياف - سورية

(٣٣) - توهم زامباور في ذكر أولاد دبيس، وأنه خلط بينهم وبين أولاد بني دبيس أصحاب الجزيرة الدبسية. انظر: Zambaur, p. 137

(٣٤) - ابن الاثير ج ١٠ ص ٤٤

(٣٥) - البنداري ص ٦٦ - ٦٨

(٣٦) - ابن كثير ج ١٢ ص ١٣٠، نقل هذا البحث من كتاب الإمارة المزيديّة، نشر دار الطباعة الحديثة في البصرة ص ٨٦ - ٩٥. وهذا البحث للدكتور عبد الجبار ناجي مختار من كتابه القيم «الإمارة المزيديّة».